

المناهج الأسلوبية في دراسة النص القرآني

دراسة وتحليل

د.نجيب على عبدالله السوداني *

مقدمة :

القرآن الكريم ذلك الكتاب الذي لا ريب فيه جاء هداية للعالمين بلسان عربي مبين وبلغة فصحي مشرقة ، استوى في أسلوب كامل يغمر العقل والروح معاً بضوء من التعبير يفتح معه وله الكون بكل أبعاده المرئي منها والخفي ، الخارجي والداخلي ، ويكسر برؤية عميقة دائرة الانغلاق المؤدي إلى تعطيل إرادة الإنسان وإلغاء طموحاته المشروعة في التحاور مع الناس ومع الكون . فهو كتاب منهج كوني مركب بتركيب متمائل مع تركيب الكون ، ولو لم يكن بناؤه مماثلاً للبناء الكوني لما كان يمكن أن يحتويه .

الكون معقد في تركيبه وفي العلاقات التي تربط بين مختلف ظواهره ، فهو عبارة عن نسيج مترابط ومتشابك ، وقراءة ظواهره بمعزل عن بعضها وبشكل مجزأ يعطي رؤية مغلوطة وخاطئة، وكذلك قراءة القرآن بشكل مجزأ ستؤدي إلى انفلات في ضوابط الفهم القرآني ، وشيوع المفهوم المختلفة والمتباينة .

ولقد أوجد المبدعون والدارسون في اللغة العربية وأسرارها عبر ما يزيد عن ألف وأربعمائة وثلاثين سنة ؛ وهي عمر وجود القرآن الكريم على الأرض أيضاً من الأبحاث والدراسات العميقة ، وما يزال القرآن الكريم وسيبقى مرجعاً للمعرفة بأبعادها العلمية والبلاغية في كل عصر ، ومع كل انعطافة تجديد في النظرية اللغوية والإبداعية يكون هذا الكتاب الجليل المصدر الحقيقي إلى السر العظيم الذي يربط عبر خصائص اللغة والطاقت الكبرى للتعبير المتوهج عن أشواق الإنسان إلى الأمل والرغبة في اجتياز منافذ الكون المغلق ، والبحث عما وراءه مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فكل يوم تشرق فيه الشمس يكون للعلماء ولطلاب العلم أمام هذا الكتاب وقفات تأمل وتدبر ، كل ينظر إليه من زاوية بحثه ومجال اهتمامه ، ثم يظل أبداً ربح المدى ، سخي المورد ، كلما حسب جيل أنه بلغ منه الغاية أمتد الأفق بعيداً وراء كل مطمح ، عالياً يفوق طاقت الباحثين ، وكلما هم أقبلوا عليه وازدادوا إقبالاً منحهم من كنوزه التي لا تنتهي ، ومن درره التي لا تنفذ كل مما يريد ويرغب .

ومن هنا نستطيع أن نرى جلياً كيف يبدو هذا الكتاب العظيم قادراً على أن ينتمي إلى كل عصر وأن تظل سوره وصوره قادرة على الإضاءة والسفر عبر مستويات عديدة من التلقي البسيط والتلقي العميق والأعمق .

أضاءت في روعي هذه التدايعات قبل أن تنتقل إلى الورق قراءاتي المتعددة لمختلف الكتابات حول النص القرآني ، وهذه الدراسة ستحاول أن تعطي صورة مشعة عن الدراسات التي ارتبطت بالقرآن الكريم مستخدمة المناهج الأسلوبية الحديثة في قراءة النص القرآني وتأمله ، وذلك من خلال استعراض الملامح الرئيسية لهذه الدراسات ، والخروج ببعض

* أستاذ اللغويات المشارك ، جامعة تعز - اليمن ، dns2003_7@hotmail.com

الرؤى التي يمكن الاستهداء بها في طريق الفهم السليم للنص القرآني ، وليبقى مشروع القراءة مفتوحاً للوصول إلى آفاق لم يستطع السابقون الوصول إليها .

الإطار المفاهيمي :

إنّ مسألة تحديد المفاهيم والمصطلحات مسألة أساسية في البحث العلمي . ولذلك قبل البدء في البحث بتفصيلاته المتعددة ، لا بد من بيان الإطار العام له ؛ لأننا نعد البدء ببيان المفهوم والمصطلح وسيلة عبور لا يمكن الانطلاق إلى البحث دون المرور بها .

ولما كان الأسلوب مرتبطاً ارتباطاً قوياً بالنص لأنه مجاله الذي يطبق فيه ، فإننا نرى أنه من المناسب أن نعرف بمفهومين أساسيين تدور عليهما محاور هذا البحث وهما : النص و الأسلوب . وسنحاول التبسيط والاختصار الشديد في ذلك نزولاً عند مقتضى الحال ... وأول ذلك وأوله هو :

1- مفهوم النص :

من المعلوم أنّ المراد بمصطلح النص في المعرفة اللسانية المعاصرة غير المراد به في تراثنا العربي الإسلامي ، فالمعاصرون يعرفونه بأنه : " مجموعة من الأحداث الكلامية ذات معنى وغرض تواصلية ، تبدأ وجودها من مرسل للحدث اللغوي وتنتهي بمتلق له ، ومؤهلة لأن تكون خطاباً ، أي أن توجه إلى شخص بعينه " ¹ ، ومن ثم فهم يشترطون وحدة موضوع النص ووحدة مقصده . والنص في تصور كثير من المعاصرين يتجاوز الكينونة اللغوية المحدودة ولا ينحصر في مقولات اللغة على الرغم من أنه متشكل منها ، بل يراعي الواقع الخارجي ، ومن ثم فإنّ النص هو المعادل اللغوي للواقع الإنساني والكوني² . أما العلماء العرب المسلمون القدامى – ولاسيما الأصوليين – فقد كان لمصطلح النص عندهم مفهوم آخر ، فنجدهم تحدثوا في (النص) بعبارات كثيرة أشهرها ما ذكره الإمام محمد بن إدريس الشافعي (ت 204 هـ) بأنه : " هو المستغني بالتنزيل عن التأويل " ³ ، أي هو الكلام الذي لا يحتمل تفسيراً أو تأويلاً لأن ظاهره يغني عن كل ذلك ، وهو الذي أبانه الله لخلقه نصاً ظاهراً بَيِّنًا .

ويبدو أنّ تعريف الشافعي هذا قد لقي قبولاً لدى علمائنا القدامى فرددوه من بعده ولاسيما الإمام الغزالي (ت 505 هـ) (وابن حزم (ت 456 هـ) وغيرهما ، ولم يخالفوه إلا في بعض الجزئيات . ونحن هنا لا نقصد ما ذهب إليه أسلافنا ، وإنما نريد بالنص مفهومه اللساني الحديث كما يطلقه اللسانيون المعاصرون ، وعليه فإنّ (لسانيات النص) كما يطلق عليها في المغرب الكبير أو (علم لغة النص) كما يطلق عليه المشرق العربي – هي علم ناشئ وحقل معرفي جديد تكوّن بالترديج في السبعينيات من القرن العشرين ، وبرز بديلاً نقدياً لنظرية الأدب الكلاسيكية التي توارت في فكر (الحدث) وما بعد الحدث ، وراح هذا العلم الوليد يطوّر من مناهجه ومقولاته حتى غدا أهم وافد على ساحة الدراسات اللسانية المعاصرة ، وقد نشأ على أنقاض علوم سابقة له ، ثم انطلق من معطياتها وأسس عليها مقولات جديدة ، وهو قريب جداً من صنوه (تحليل الخطاب)

¹ فيهنفايغر : مدخل إلى علم اللغة النصي ، ت فالخ العجمي ، منشورات جامعة الملك سعود، الرياض ، 1996 م ص 123

² سعيد بجيري : علم لغة النص ، ط1 ، الشركة المصرية العامة للنشر ، القاهرة ، 1997 م ، ص 109

³ الشافعي : محمد بن إدريس ، الرسالة ، ت أحمد محمد شاكر ، المكتبة العلمية ، القاهرة ص14

غير أنّ هذا الفرع الأخير يقوم على أساس التحليل البنيوي ، أما فرع (لسانيات النص) – حتى وإن استثمر جميع النظريات اللسانية السابقة عليه – فهو يقوم في الأعم الأغلب على أساس التحليل التداولي ، وأهم ملمح في لسانيات النص أنه غني متداخل الاختصاصات يشكل محور ارتكاز عدة علوم ، ويتأثر دون شك بالدوافع ووجهات النظر والمناهج والأدوات والمقولات التي تقوم عليها هذه العلوم .

وأما في التراث اللغوي فقد بحث بعض علمائنا في (النص) ونظروا له ولم يتوقفوا عند التنظير للجمل كما يحلو لبعضهم أن يردد ؛ فمن علمائنا الذين قدموا إسهاماً علمياً ناضجاً (في مجال التنظير والتطبيق النصي) الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ) في (نظرية النظم) وتبرز قيمته (النصية) في أنه جمع بين علوم كثيرة كـ (النحو) وعلم المعاني (وعلم البيان) (والتفسير) (ودلالة الألفاظ) (والمعجمية) و(المنطق) ... وألف بين أشتاتها في تناغم عجيب واتخذ منها أدوات معرفية متصافرة على تحقيق هدف واحد هو : خدمة النص القرآني وبيان إعجازه . وقد كانت فكرة (الانسجام النصي) واضحة في ذهن عبد القادر وضوحاً متميزاً حتى إننا نجده يعبر عنها بقوله : " واعلم أن مثل ذلك واضح كمن يأخذ قطعاً من الذهب أو الفضة فيذيب بعضها في بعض حتى تصير قطعة واحدة ..."⁴ وهذا يدل على أنّ بنية النص في تصور عبد القادر الجرجاني تصل إلى مرتبة الصهر الذي هو أعلى درجات التشكيل .

ومنهم جمهور علماء أصول الفقه ، ولاسيما الذي بحث منهم في حقل دلالات الألفاظ ومعاني الأساليب وما يترتب عليها من قواعد وأحكام ، وتعرضوا للثنائيات الدلالية التي وضعوها تحت عناوين : العام والخاص ، والمطلق والمقيد ، والمجمل والمفصل ، والمحكم والمتشابه . لقد كان علماء الأصول جامعين للشروط العلمية والأدوات التحليلية التي حققت لهم كفاية علمية ممتازة في البحث النصي . هذه الثنائيات تشمل الشروط الجوهرية والوظيفية والمعرفية للنص القرآني الكريم ... وليس لتفصيل الكلام في ذلك منهم صنف آخر ، هم المفسرون الذين قاموا بجهود كبيرة في تحليل النص القرآني كل على طريقته ؛ فلقد سلكوا إلى فهمه طرائق منهجية شتى أهمها طريقة السياق ، ولكن المفسرين يتفاوتون في الأدوات المعرفية المعتمدة بين أثرية ولغوية ومنطقية ...

وقد أدرج علمائنا القدامى – ضمن مفاهيم النص – مفهوم القصد وهو الغرض الذي يبتغيه المتكلم من الخطاب والفائدة التي يرجو إبلاغها للمخاطب ، فلن يكون هناك نص ولا خطاب دون قصد.

⁴ عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، ت ياسين الأيوبي ، المكتبة العصرية ، صيدا 2000 م ص388

2- مفهوم الأسلوب والأسلوبية :

قبل أن ننطلق في دراسة موقف المناهج الأسلوبية من النص القرآني ، لابد لنا من الوقوف أمام مفهوم الأسلوبية الذي نقصده ، وتحديد نقطة الانطلاق التي سنبدأ منها العمل ، هذه النقطة هي الوقوف على مفهوم مصطلح الأسلوب والأسلوبية ، وبيان الفرق بينهما .

يعرف الأسلوب بأنه : " الطريقة والوجهة والمذهب . يقال : أنتم في أسلوب سوء . ويجمع أساليب والأسلوب : الطريق تأخذ فيه ، ويقال للسطر من النخيل أسلوب ، وكل طريق ممتد أسلوب ، والأسلوب بالضم : الفن ، يقال : أخذ فلان في أساليب من القول أي في أفانين منه " ⁵

وفي المعجم الوسيط : " الأسلوب : الطريق . يقال : سلكت أسلوب فلان في كذا : طريقته ومذهبه . وهو طريقة الكاتب في كتابته ، والأسلوب : الفن ، يقال أخذنا في أساليب من القول أي فنون متنوعة " ⁶ .
إذاً فالأسلوب في اللغة : الطريقة ، والمذهب ، والفن . ومن ناحية دلالية قد يعني الخصائص الفردية حين نتحدث عن أسلوب كاتب معين ⁷ .

كما قد يعني النظام أو القواعد العامة حين نتحدث عن أسلوب المعيشة لدى شعب ما أو أسلوب العمل في مكان ما

8 .

أما مفهوم الأسلوب في اصطلاح اللغويين فينقل جورج مولينيه تعريفاً للأسلوب يصفه بأنه من أكثر تعريفاته كمالاً ، ومن أشدها حثاً على التفكير . هذا التعريف هو تعريف ريشله الذي يقول فيه : "تقال هذه الكلمة – أسلوب – عند التكلم عن الخطاب . فالأسلوب هو الطريقة التي يتكلم بها كل شخص . هناك من الأساليب بقدر ما هنالك من أشخاص يتكلمون " ⁹ .
لكن مولينيه بعد هذا الإطار لتعريف ريشله يعود فيعرف الأسلوب بأنه : " الطريقة الفردية في إدارة مجموعة من التحديات اللغوية في النص " ¹⁰ .

وهذا التعريف يقترب كثيراً من تعريف بيرجيرو للأسلوب حيث يعرفه بأنه استخدام الفرد لأدوات تعبيرية من أجل

غايات تأثيرية ، فالتعبير عن الفكرة لا يتم إلا بواسطة اللغة . ¹¹

⁵ ابن منظور : جمال الدين - لسان العرب ، د . م . ط - ج 1 ، ص 473 مادة "سلب" .

⁶ مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط ، ط 3 ، القاهرة ، د.ت.ط.ج 1 ، ص 457 ، مادة "سلب"

⁷ شكري محمد عباد : مدخل إلى علم الأسلوب ، ط 1 ، دار العلوم ، الرياض ، 1982م ، ص 142

⁸ درويش : أحمد ، الأسلوب والأسلوبية ، مجلة فصول ، المجلد الخامس ، العدد الأول ، أكتوبر 1994م ص 42

⁹ مولينيه : جورج ، الأسلوبية ، ترجمة بسام بركة ، ط 1 ، المؤسسة الجامعية للنشر ، بيروت ، 1999م ص 48

¹⁰ مولينيه ، الأسلوبية ، ص 49

¹¹ - بيرجيرو : الأسلوب والأسلوبية ، ت منذر العياشي ، ط 5 ، مركز الإنماء القومي ، بيروت ، د . ت . ط ، ص 6

إلا أنّ عبد السلام المسدي ينقل تعريفاً عن سببترز للأسلوب يحدد فيه بأن الأسلوب هو العملية المنهجية لأدوات اللغة¹². ويقف بوفون معرفاً للأسلوب بأنه هو " الإنسان نفسه " ¹³

ثم يأتي سعد مصلوح ليقف على تعريف أحسبه دقيقاً بعض الشيء فيقول : "الأسلوب اختيار او انتقاء يقوم به المنشئ لسماوات لغوية معينة بغرض التعبير عن موقف معين " ¹⁴.

ومهما يكن من أمر اختلاف تعريف الأسلوب باختلاف المدارس والمذاهب النقدية ، إلا أنّ إجماعاً كاد ينعقد بين عدد من النقاد والكتاب في تعريفهم للأسلوب بأنه : "طريقة الفرد في التعبير عن موقفه ، والإبانة عن شخصيته المتميزة ، باختيار ألفاظه ، وصياغة جملة ، وعباراته ، والتأليف بينها ، للتعبير عن معان ، القصد منها الإيضاح والتأثير " ¹⁵. إذاً يمكننا القول بأن المعنى العام لكلمة أسلوب تعني تفصيلاً أو اختياراً ما ، من ضمن مجموعة من البدائل المتاحة في مجال معين .

وكما يحدث ذلك في كافة مجالات الحياة يحدث أيضاً في اللغة . فمن المفترض أنّ هناك طرق متعددة يمكن أن تستخدم للتعبير عن المعنى الواحد ، يختار الفرد من بينها ما يرى أنه أقدر على التعبير عن الفكرة التي يتناولها . فإذا كان هذا هو الأسلوب . فما هو علم الأسلوب إذن ؟ إنّ العلم الذي يقدم لنا رؤية واضحة عن هذا التفصيل وهذا الاختيار من مجموعة البدائل المتاحة ، ويبين لنا دلالات وسمات هذا التفصيل وهذا الاختيار ، هو ما يمكن أن نطلق عليه علم الأسلوب ، وهو ما حدّد صلاح فضل هدفه النهائي في تقديم صورة شاملة عن أنواع المفردات والتراكيب وما يختص بها من دلالات ¹⁶ . إذاً ذلك هو الأسلوب ، وهذا علم الأسلوب . فما هي الأسلوبية إذن ؟

الأسلوبية هي : لفظة مؤلفة من جزأين : كلمة أسلوب وتتبعها لاحقة من ياء النسب ، وهذه اللاحقة تعني الانتساب إلى مجال العلم والاتصاف بخصائصه فالتعريف اللغوي للأسلوبية : هو الانتساب إلى علم الأسلوب وهي كما يعرفها الهادي الجطلاوي بأنها : "تحليل لغوي موضوعه الأسلوب ، وشرطه الموضوعية ، وركيزته الألسنية " ¹⁷ .

ويرى عبد السلام المسدي أنّ الأسلوبية تتحدد بدراسة الخصائص اللغوية التي يتحول الخطاب بموجبها عن سياقه الإخباري إلى وظيفته التأثيرية والجمالية ¹⁸.

¹² المسدي : عبد السلام ، الأسلوبية والأسلوب ، ط3 ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، 1982م ، ص36

¹³ مولينيه ، الأسلوبية ، ص52

¹⁴ مصلوح : سعد ، الأسلوب دراسة لغوية إحصائية ط3 ، عالم الكتب ، القاهرة ، 1992م ص 72 .

¹⁵ الرمز : أحمد قاسم ، طواهر أسلوبية في الشعر الحديث في اليمن ، ط1 ، مركز عبادي للدراسات ونشر ، صنعاء ، 1996م ص 34 .

¹⁶ صلاح فضل : علم الأسلوب "مبادئه وإجراءاته ، " ط2 ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، 1985م ، ص117.

¹⁷ الجطلاوي : الهادي ، مدخل إلى الأسلوبية ، ط1 ، مكتبة عيون ، الدار البيضاء ، 1992م ، ص37

¹⁸ الأسلوبية والأسلوب ، ص 36

ويستعرض الدكتور صلاح فضل آراء شارل بالي ويتلخص منها أنّ الأسلوبية : تتمثل في مجموعة من عناصر اللغة المؤثرة عاطفياً على المستمع ، ومهمة الأسلوبية لديه هي البحث عن القيمة التأثيرية لعناصر اللغة المنظمة والفاعلية المتبادلة بين العناصر التعبيرية التي تتلاقى لتشكّل نظام الوسائل اللغوية المعبرة¹⁹.

ويعرفها مولينيه بأنها : "تحليل لخطاب من نوع خاص " فهي وإن كانت تعتمد على قاعدة نظرية "لسانية أو سيميائية أو برغماتية " فإنها أولاً وأخيراً تطبيق يمارس على مادة هي الخطاب ولكن ما الخطاب ؟ المقصود بكلمة خطاب في المفهوم اللساني هو كل نص يأتي نتيجة لعمل إرسال لساني يقوم به مرسل ما ، ويكون موجهاً بطريقة حتمية إلى قارئ أو سامع "فعلي أو متخيل " يقوم بعمل التلقي والتفسير . ولابد لهذا الخطاب في المنظور الأسلوبي من أن يكون محدداً ، إما في حدود دنيا " مثل البيت الشعري الواحد " أو ضمن حدود قصوى " مثل العمل الأدبي الواحد " والأساس في هذا المضمار هو أن تكون مادة التحليل الأسلوبي محددة بدقة وبصورة دائمة²⁰.

الأسلوبية إذن ممارسة قبل أن تكون علماً أو منهجاً ، أساسها البحث في طرافة الإبداع وتميز النصوص . هي قراءة للنص ، وقراءة النص لا تقف عند مستوى الحروف والكلمات والتراكيب ، بل تتجاوز ذلك إلى الأحاسيس والمشاعر وأجراس الكلمات وإيقاعاتها²¹ . و مما سبق يمكننا القول أنّ الأسلوب هو طريقة التعبير عن مكونات النفس ودواخلها .

وعلم الأسلوب هو وصف هذه الطريقة ، وبيان سماتها وخصائصها المميزة لها عن غيرها من الطرق. هذا الوصف يتم من خلال تحليل هذه الطريقة ، ليتم معرفة هذه السمات والخصائص ، هذا التحليل هو الأسلوبية ، فالأسلوبية هي أداة علم الأسلوب في وصف الأسلوب .

وهنا يستوقفنا سؤال عن ماهية المناهج التي تتبعها الأسلوبية في تحليلها للنصوص ؟ وللإجابة عن هذا التساؤل لابد من الإشارة إلى أنّ التحليل الأسلوبي : "ضروب تختلف باختلاف ثقافة الدارسين الممارسين ، وباختلاف زوايا النظر التي ينظرون منها إلى النص ، فمنهم من يمثل تحليله نقطة التقاء اللسانيات وعلم البلاغة ، أو اللسانيات وعلم النقد الأدبي ، أو التقاء مبادئ نظرية الإخبار في تحديد الجهاز الأدنى في التخاطب ومبادئ اللسانيات العامة ومقاييس النقد الأدبي ، كما يختلف التحليل الأسلوبي باختلاف الهدف ، فقد يكون الهدف منه تحديد مقومات الكلام العادي في جهة ومقومات الخطاب الأدبي في جهة أخرى . كما قد يكون الهدف منه تحديد ردود فعل المتقبل إزاء الرسالة اللغوية المجسمة في النص المدروس ، ثم البحث عن دوافع تلك الردود في شكل النص نفسه . كما يختلف التحليل الأسلوبي باختلاف مداخل التحليل ، فقد يكون المدخل بنيوياً بمعنى أنّ الانطلاق فيه يكون مباني المفردات وتراكيب الجمل وأشكال النصوص وهندسة الأثر ، أو دلاليّاً ينطلق فيه من صور معانيه الجزئية وموضوعاته الفرعية وأغراضه الغالبة ومقاصده

¹⁹ علم الأسلوب، ص 75

²⁰ مولينيه، الأسلوبية، ص 64

²¹ الطرابلسي : محمد هادي ، تحاليل أسلوبية ، ط2، دار الجنوب للنشر ، تونس ، 1989م ص101

العامّة وأجناسه المعتمدة ، كما قد يكون المدخل بلاغياً ينطلق فيه من الظاهرة الأسلوبية أو مجموعة الظواهر المستخدمة
22

إذاً لا توجد وصفة جاهزة تعتمد في التحليل ، يمكن أن تطبق تطبيقاً آلياً على النصوص ، ولكنها اختيارات واجتهادات ومهارات ، ومهما يكن من أمر التحليل الأسلوبية إلا أنه يجب أن نعرف أنّ الدارس الأسلوبية ليس ملزماً بطريقة واحدة في التحليل ، أو محصوراً في نموذج واحد .

النص القرآني والدراسات الحديثة :

إنّ المتأمل لما كتب من أبحاث ودراسات مرتبطة بالنص القرآني خلال العقود الأخيرة ، يجد نفسه أمام ثورة علمية واسعة وأمام نتائج كبيرة لم يسبق له مثيل في مدة زمنية مماثلة من قبل ، وسيجد نفسه يقف أمام دراسات ذات تعدد منهجي غير مألوف له ، هذا التعدد الخارج عن إطار المؤلف جاء نتيجة استخدام مناهج غربية وافدة ومتنوعة بل أحياناً متضاربة ، هذه المناهج لم تكن نتاج بيئة عربية إسلامية ولم تكن ذات أصول ثقافية عربية .

كما أنّ المتأمل سيجد أنّ هذه الدراسات وهذه الأبحاث قد ساهم فيها عرب وغير عرب ، مسلمون ومستشرقون ، قدموا فيها نتائجاً جديداً وروى جديدة للنص القرآني "بغض النظر عن تقييم ما قدموه " ، ومع أنّ هناك كثير من الدراسات التي اهتمت بالحديث عن المنهجية الجديدة والمدارس الحديثة في تفسير النص القرآني وتأويله ؛ إلا أنها غالباً ما كانت متحيزة لرأى معين وغير مكتملة حيناً آخر ، بعض هذه الدراسات توقف عند مرحلة متأخرة من التفسير كتفسير المنار لمحمد عبده وتفسير في ظلال القرآن لسيد قطب ، وبقيت المرحلة التي تلي هذه المرحلة - على رغم أهميتها - مهملة ، مع أنها مرحلة جديدة اتسمت بالمعاصرة وسميت بظاهرة القراءة المعاصرة للقرآن .

وقد وضعت بعض الدراسات²³ تقسيماً لهذه القراءات المعاصرة على مرحلتين لكل مرحلة سماتها الخاصة بها :

المرحلة الأولى :

وهي التي بدأت مع الشيخ محمد عبده ، حيث شهدنا عملية فعلية للتفسير والتأويل مستفيدة من معطيات العصر ، وكان محمد عبده قد نعى على العلماء عدم الاستفادة من العلوم الغربية الحديثة ، وعندما شرع في تفسيره تأوّل القرآن طبقاً لتلك العلوم والنظريات العلمية ، مما جعل الداروينية مقولة قرآنية، ثم تأوّل المعجزات تأويلاً وضعياً²⁴.

كما سنجد امتداد ذلك لاحقاً مع طنطاوي جوهرى في تفسيره الجواهر ، وهو تفسير يبرهن فيه على أنّ كل العلوم في الغرب موجودة في القرآن !! وأنّ القرآن قد سبق إليها ، ليضمننا بذلك " إلى أننا سبقنا عصرنا إلى كل ما يتناول به الغرب علينا من علوم حديثه " كل ذلك ليريحنا من مهانة الإحساس الباهظ بالتخلف كما تقول بنت الشاطئ²⁵ . ثم مع أبو

22 تحاليل أسلوبية ، ص 8

23 أنظر دراسة عبدالرحمن الحاج - ظاهرة القراءة المعاصرة وأيديولوجيا الحداثة ، مجلة التسامح ، وزارة الأوقاف ، مسقط، ع1، 2003م، ص 226.

24 الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ، ت محمد عمارة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 1972م ج6 ص153

25 عائشة بنت الشاطئ ، القرآن والتفسير العصري ، دائرة المعارف ، القاهرة ، 1970م ، ص38

زيد الدمنهوري في كتابه " الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن " ²⁶، والذي خص فيه إلى استنطاق القرآن بما يتلاءم مع أفكار العالم المعاصر في كثير من القضايا ، إلى أن جاء المصطلح معبراً في عنوان (التفسير العصري) ²⁷ مع مصطفى محمود في بداية السبعينات من القرن الماضي .

تتميز هذه المرحلة التي امتدت إلى أواخر السبعينات من القرن الماضي بعدة خصائص :

- فهي لم تخرج عن مناهج التفسير التقليدية ، ولهذا لم تتجاوز التأويلات الإجرائية التي تناولت بعض الآيات بما يتلاءم مع مقولات العصر الشائعة ، حتى لو خرقت تلك التأويلات الأطر المنهجية التقليدية في التفسير . بل إننا نجد في هذه المرحلة كيف وصل التفسير إلى مجرد تأملات تتسم بالبساطة والسذاجة أحياناً كما هي عند مصطفى محمود .

- والاجتزاء يبدو ظاهرة واضحة ، حيث لا يتم التأويل المعاصر إلا في تلك الآيات المتعلقة بالإشكالات الفكرية المعاصرة ، أو تلك التي يشتبه بها في استنطاق الاكتشافات الحديثة ! ونظراً لاحتكام التفسير / التأويل - في هذه المرحلة - إلى المناهج التقليدية في التفسير ، فقد ظل مصطلح التفسير مهيمناً كإسم لهذه العملية التأويلية ، ولارتباطها بالعصر كان من الطبيعي أن يبرز مصطلح " التفسير العصري " أو " المعاصر " تعبيراً عنها .

المرحلة الثانية :

ويحينا إليها مصطلح القراءة نفسه الذي يشير إلى مصادر منهجية معاصرة هي مناهج النقد الأدبي واللسانيات الحديثة ، فنحن هنا إذن أمام استخدام لمناهج وأدوات جديدة في دراسة القرآن نستطيع أن نقدر بدايته في نهاية السبعينات وبداية الثمانينات حيث كانت المناهج الأدبية واللسانية قد أخذت حضورها إلى جانب الدراسات الأخرى في العالم العربي ، وبدأت تتسرب إلى كل شيء ، فكان لنا أن نرى عام (1979م) (العالمية الإسلامية الثانية) لأبي القاسم حاج حمد ، والتي اعتمد فيها على مزيج من المقولات اللسانية والفلسفية ربما لأول مرة ، وفي الثمانينات ظهرت محاولة أركون في قراءة التراث الإسلامي وتأويل النص الديني ، ويعتبر أركون أكثر من توسع في استخدام المناهج الحديثة وخصوصاً اللسانية ، وحسن حنفي الذي حاول أن يؤسس لتفسير معاصر اعتماداً على معطيات العصر المنهجية ، ثم محمد شحرور في (الكتاب والقرآن : قراءة معاصرة) الذي اعتمد فيه على خليط من البنيوية والتاريخية، ونصر حامد أبو زيد الذي طرح في (مفهوم النص) منهجه القائم على التأويل من خلال نقد تراث علوم القرآن ... وغيرهم ²⁸.

تتميز القراءة المعاصرة للنص القرآني ، وهي المرحلة الثانية في الدراسة المعاصرة للقرآن بالخصائص التالية :

- مارست (قطيعة) جذرية في مناهج التأويل مع التراث ، في حين تواصلت مناهج (التفسير العصري) معه ، إلى حد التطابق وهي (نقطة) سمحت بتجاوز عقبات المنهج التقليدي أمام التأويلات المتعسفة .

²⁶ طبع في القاهرة عام 1956م ، ثم منع من التداول من لجنة الأزهر وقد صنفه الذهبي تحت عنوان التفسير الإلحادي ، أنظر الذهبي : حسين ، التفسير والمفسرون ج 4 ص 19

²⁷ ظهر المصطلح لأول مرة مع مصطفى محمود عام 1970م في مقالات مجلة صباح الخير المصرية ثم جمعها في كتاب بعنوان: القرآن محاولة لفهم عصري / طبع في العام نفسه .

²⁸ أنظر : السعيداني: خالد ، إشكالية القراءة في الفكر العربي المعاصر، رسالة دكتوراة، جامعة الزيتونة ، تونس ، 1998م ، ص 98 .

- سمحت بتأويل لـ(كامل النص) من خلال نماذج قابلة للتكرار ، أو ممارسة شاملة في الوقت الذي كان فيه التفسير العصري يتعثّر في ترقيعاته ، فليس هنا اجتزاء أو تأملات ، بقدر ما هي ممارسة وبحث معرفي يتوسل بجهود ذهنية كبيرة ومنظمة .

وإذا كان من ضرورات (الظاهرة) التكرار ، والوضوح ، فإننا نستطيع أن نصف (القراءة المعاصرة) بـ(الظاهرة) . خصوصاً منذ عقد التسعينات ، حيث ساهم في هذا التحول الصخب الذي تمخض عن صدور كتاب شحور (الكتاب والقرآن) تحت العنوان الفرعي : (قراءة معاصرة) هذا الصخب الذي لم ينته بعد ، والذي يعكس (استفزازاً) حقيقياً لمنظومة العقل المسلم المعهودة .

سمات منهجية :

أمام الاهتمام المتزايد بدراسات النص القرآني لمواكبة النهضة التي أصبحت الشغل الشاغل للفكر الإسلامي خلال القرن ونصف القرن الماضيين ، وأصبحت دراسة القرآن وتفسيره تقليداً تسيّر عليه كل حركات الإصلاح الديني والسياسي في تاريخ الحضارة الإسلامية ؛ بحيث أصبح كل تفكير بالنهضة لا بد أن يتخذ موقفاً تجاه النص القرآني وفهمه فهماً يسوغ رؤيته للحاضر والمستقبل ، كما أنّ زيادة الحاجة الملحة لعرض المعرفة الدينية وفق التطورات المتسارعة لمستجدات العصر وأطروحاته الفكرية ، كل ذلك جعل المشتغلين بالنص يبحثون عن مناهج جديدة قادرة على تقديم رؤية للقرآن موضوعاته وتاريخه ، ومن خلال التتبع التاريخي نجد أن هذه المحاولات ظهرت في الأشكال الآتية:

أولاً : مناهج التفسير الموضوعي :

يصعب على أي دارس أن يجد منهجاً جديداً وبارزاً غير التفسير الموضوعي في هذه الفترة ، الذي استحوذ على اهتمام لا مثيل له من قبل ، بحيث إنّ التفسير المعهود الذي يبدأ من سورة الفاتحة ويسير خطياً إلى سورة الناس خاتمة القرآن الكريم ، قل الاهتمام به ، وأصبح الباحثون في علم التفسير مهتمين بشكل كامل تقريباً بالتفسير الموضوعي . إنّ في التفسير الموضوعي ذاته ما يبرز هذا الاهتمام الكبير به ، ذلك أنّ الفلاسفة الغربية ، وخصوصاً الماركسية ، ما أخذت شوكتها تشنّد إلا مع منتصف الخمسينيات ، وقد وضح أنّ التفسير الموضوعي يمتلك قدرة بالغة في المحاجة والدفاع عن الإسلام والعقيدة الإسلامية ، وبالرغم من أنّ التفسير الموضوعي بدأ مبكراً في تاريخ الإسلام عندما كتب الجاحظ عن النار في القرآن الكريم ، وكتب ابن تيمية -رحمه الله- رسالة عن لفظة "السنة" في القرآن الكريم ، وعندما نضج علم الوجوه والأشباه والنظائر في القرآن الكريم الذي يدرس مفردات القرآن الكريم في كل وجوه استعمالها في إطار القرآن نفسه ... بالرغم من كل تلك الجهود ، إلا أنّ المنهج ما كان واضحاً إلى درجة يمكن فيها التنظير العلمي له ، ولهذا لا نجد من بين كل الذين كتبوا في التفسير من قعد لهذا المنهج ، وحتى في بداية القرن الماضي عندما كتب الشيخ محمد عبده تفسيره جزء عم ، ثم تفسير المنار استخدم تقنيات التفسير الموضوعي ، من دون أن ينظر بشكل علمي لهذا المنهج .

ونستطيع أن نؤرخ - باطمئنان - لبداية البلورة العلمية لهذا المنهج باكتشاف الشيخ محمود محمد حجازي - بعد كتابته "التفسير الواضح" الوحدة الموضوعية في القرآن" والتي كانت موضوع أطروحته للدكتوراه في الأزهر سنة 1967م

، ومنذ ذلك الحين أصبح العمل متجهاً إلى بلورة هذا المنهج بشكل نظري . أيضاً أخذت الدراسات تتكاثر تبعاً ، وقدمت أطروحات جامعية عالية في هذا الموضوع في العراق والمغرب ومصر ، والأردن ، وما تزال إلى اليوم تتقدم في صياغة منهج التفسير الموضوعي وتطوره.

يقوم مبدأ التفسير الموضوعي على مفهوم " الوحدة الموضوعية " للقرآن وهو مفهوم بدأ له معنيين هما :

- وحدة "الأفكار " و"الموضوعات " التي يتناولها النص القرآني ، فما يقدمه مثلاً عن المال في أول القرآن الكريم ، له علاقة مع ما يذكره عن المال في آخره ، ويتكامل معه ، ذلك لأنّ المصدر الذي صدر عنه النص القرآني يفترض منطقيته وانسجامه مع بعضه ، وهو معنى الآية الكريمة : { ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً } {النساء : 82} أو وحدة الموضوع الذي يطرحه القرآن في السورة ، التي تشكل برمتها موضوعاً واحداً .

- وحدة القرآن الكريم ، بناءً وموضوعاً ، بحيث يصبح كالكلمة الواحدة في موضوعاته ومفرداته وألفاظه .

ويستبدل أحياناً بالوحدة الموضوعية هنا الوحدة العضوية حسب مصطلح الدكتور عبد الله دراز ، أو الوحدة البنائية حسب اصطلاح الدكتور طه جابر العلواني²⁹.

وبناءً على تحديد مفهوم " الوحدة الموضوعية " وجد هناك ثلاثة تعريفات للتفسير الموضوعي ، تجعلنا نقول بوجود ثلاثة اتجاهات في التفسير الموضوعي أو فنقل ثلاثة أنواع هي :-

- المفردات القرآنية :

وهو دراسة لدلالة المصطلحات والمفردات القرآنية داخل القرآن الكريم وفي حدوده فحسب ، وبالرغم من أن هذا النوع من التفسير لكلمات القرآن يعتمد مبدأ " الوحدة العضوية " أو " البنائية " للقرآن الكريم فإنّ بعض الباحثين لا يعتبره من التفسير الموضوعي ، ذلك أنه لا يعطي صورة كاملة عن موضوع ما أو سورة ما ، ولكن تفسير مفردات القرآن وتحديد دلالة مصطلحاته هو في الواقع تحديد للمفاهيم .

ويجدر التنبيه هنا إلى أنّ هذا النوع من التفسير يجد جذوره في علم الأشباه والنظائر أو الوجوه والنظائر المعروف في علوم القرآن الكريم ، وقد بدأ الاهتمام به في وقت متأخر ، ذلك أنهم اكتشفوا أنّ المشكلة الأساسية في أي تفسير تكمن في التعامل مع القرآن مجرد تعامل لغوي دون الانتباه إلى إمكانية أن يكون في تلك المفردات ما هو اصطلاح قد يغيّر جذرياً التفاسير المعهودة .

- السورة :

قصر بعضهم التفسير الموضوعي على دراسة السورة القرآنية باعتبارها تتضمن موضوعاً واحداً تدور كل مقاطع السورة في المحصلة حوله ، ولذلك عادة ما يقوم الباحثون والمفسرون بتحديد الموضوع في بداية التفسير ، وهو أمر يشبهه - إلى حد بعيد - طريقة الشهيد سيد قطب في ظلاله ، ويجري تحديد مدلول باقي السورة بناءً على هذا التحديد المسبق ، الذي يقوم عادة على الاستقراء .

²⁹ العلواني : طه جابر ، أفلا يتدبرون القرآن ، ط 1 ، دار السلام ، القاهرة ، 2010م ، ص 130.

وتعتبر أهم دراسة - حتى الآن - هي دراسة الدكتور محمود البستاني " عمارة السورة القرآنية " التي طبعت مؤخراً ، وأهمية هذه الدراسة أنها تبحث عن قوانين تحدد الأساس الموضوعي الذي يقوم عليه بناء السورة القرآنية من خلال القرآن الكريم كله .

-الموضوعات :

هذا النوع هو الأكثر شهرة ، والأكثر تبادراً إلى الذهن عند إطلاق تعبير " التفسير الموضوعي " ويتوقف هذا التفسير على تحديد " الموضوع " الذي يجب أن يدرس ، والمشكلة الأساسية أنّ هذا النوع من التفسير لا يمكن أن يشكل تفسيراً كاملاً للقرآن ، شأنه شأن دراسة المفردة القرآنية التي ذكرناها آنفاً ، ذلك أن الموضوعات التي تناولها القرآن يصعب حصرها ، فتحديدها بطبيعة الحال اجتهاد ، والاجتهاد يختلف فيه -ضرورة - من حيث كونه ظني الدلالة . هذا خلافاً للتفسير الموضوعي الذي يعتمد السور .

هذه الأنواع الثلاثة للتفسير الموضوعي يبدو أنه لا يزال هناك اختلاف حولها ، وما يزال كل نوع منها يعتمد مستقلاً عن الآخر ، بحيث يعسر علينا العثور على تفسير واحد يجمع الأنواع الثلاثة مجتمعة ، وهو ما نراه الآن ضرورياً لمناهج التفسير ، وبالتالي فثمة حاجة الآن لإنشاء منهج يمزج الأنواع الثلاثة ويؤسس للعلاقة بينها وطريقة عملها والأدوات العلمية اللازمة لكل منها .

يبقى أنّ أهم ما في التفسير الموضوعي هو اعتماده على الدراسة الداخلية للقرآن ، أي الاعتماد على مبدأ تفسير القرآن بالقرآن ، والاكتماء به ، وهو ما يوقعه في إشكالية غاية في الخطورة ، وهو تحوله إلى تفسير مع وقف التنفيذ ، ذلك أنّ هناك مصدراً آخر هو السنة النبوية الشريفة غير مأخوذة بالحسبان وإذا كنا لا نرى دمجها مباشرة بالدراسة الموضوعية للقرآن التي أثبتت جدواها وأهميتها باعتمادها على القراءة الداخلية للقرآن ، فإننا ننبه هنا إلى ضرورة اعتمادها كخطوة ثانية في التفسير الموضوعي ، بحيث يتم المؤاممة بين نتائج التفسير الموضوعي ونصوص السنة الشريفة بوصفها مبينة للقرآن وتابعة له في وقت واحد .

وإذا فرقنا بين مصطلح " التفسير الموضوعي " كعبارة محددة الدلالة على النحو السابق ، وبين المفهوم العام للتفسير الموضوعي فإننا نقول : إنّ مفهوم التفسير الموضوعي يدلنا على الأصول التاريخية لهذا المنهج الذي كان في أذهان بعض المفسرين رغم عدم وضوحه ، فيما نقول : إنّ مصطلح التفسير الموضوعي يشير إلى المحاولات النظرية التي تجعل لهذا المنهج قواعد علمية وأدوات وطرق بحث ، حيث نجد أنفسنا بكل تأكيد أمام التاريخ المعاصر للعلوم الإسلامية .

يبقى أنّ المنهج الوحيد الذي يمكننا وصمه بالأصالة الإسلامية في الفترة المعاصرة هو فقط التفسير الموضوعي ، أما المناهج الأخرى فهي إما مختلطة مثل " التفسير البياني " أو الأدبي ، وإما غريبة مثل مناهج " القراءات المعاصرة "

ثانياً : مناهج التفسير اللسانية :

لم يدرس بعد تاريخ هذه الظاهرة ، ظاهرة اعتماد المناهج الغربية في دراسة القرآن الكريم وتأويله، فيما عرف بعد ذلك بـ " القراءة المعاصرة " وقد انتهت إلى أنّ هذه الظاهرة ، بدأت منذ 1950م عندما كتب "المستشرق" الياباني توشهيكو ايزوتسو دراسته بعنوان " بنية المصطلحات الأخلاقية في القرآن " باللغة الإنجليزية ، ولكن لابد من الإشارة إلى أنّ المناهج الغربية الحديثة التي استخدمت لتأويل القرآن كانت تعتمد على اللسانيات بدرجة أولى ، وبدرجة ثانية على المنهج التاريخي . وسأتي على تفاصيلهما هنا:

اللسانيات علم يدرس اللغة ، ويحاول جعل اللغوي معتمداً على التجريب تماماً كالبحث التطبيقي في العلوم الحسية البحتة ، وهو على كل حال نشأ في ظروف تمدد المنهجية الوضعية الغربية وبسط نفوذها على العلوم الإنسانية لإخضاعها لمنطق الحس ، (بالرغم من مفارقتها له) ولذلك فإنّ هذا العلم (اللسانيات) علم يقوم على أرضية فلسفة وابتولوجية (أصول معرفية) وضعية ، وهو بذلك ليس علماً حيادياً ، مما يجعل استعماله محفوفاً بالمخاطر خصوصاً إذا كان موضوع تطبيقه القرآن الكريم .

في كل الأحوال فإنّ اللسانيات علم يهدف إلى اكتشاف القوانين التي تحكم اللغة واستعمالاتها، وينزع إلى البحث عن القوانين التي تحكم لغات العالم جميعها في وقت واحد ، وهو من هذه الجهة جديد كل الجدة .

الغاية التي يسير إليها هذا العلم باختصار :

فهم المنطق الذي يحكم اللغات من أجل ضبط " المعنى " أو الدلالة . وهو هنا يتقاطع مع كل العلوم الإنسانية والعلوم التي تدرس النص ، وبالخصوص علم " أصول الفقه " الإسلامي ، العلم المتخصص بدراسة النص اللغوي ، والعربي منه على وجه الخصوص .

قلنا قبل قليل : إنّ أول دراسة كانت للمستشرق الياباني "توشهيكو ايزوتسو" في كتابه "بنية المصطلحات الأخلاقية في القرآن " عام 1950م ، وكان (باللغة الإنجليزية) وما يزال ، ثم كتب عدد من المستشرقين الفرنسيين (آلرد وآخرين) دراسة طبق فيها علم الدلالة اللساني في كتاب " تحليل مفهومي للقرآن " عام 1963م .

وفي عام 1964م نشر معهد كيوتو للثقافة والدراسات اللسانية في طوكيو دراسة باللغة الإنكليزية للمستشرق الياباني المذكور آنفاً ، بعنوان : " الله والإنسان في القرآن : علم دلالة التصور القرآني للعالم ... " في هذه الفترة كان علم اللسانيات مازال في طور تبلوره ، وخصوصاً علم الدلالة وعلم العلامات السيميائية كانا ما يزالان في البداية . وقد حاول ايزوتسو في دراسته أن يخلط خصوصية القرآن ولغته التي تشير إلى المصدر الإلهي ، والطابع الوضعي للسانيات ، ولذلك حاول أن يطوع النظريات اللسانية لتحليل القرآن الكريم ؛ بهدف الكشف عن نظريته الكلية للكون والحياة والإنسان وبذلك انتبه ايزوتسو إلى أخطر مشكلة تواجه تطبيق البحث اللساني على النصوص الدينية . ولذلك (وبالرغم من أنّ ايزوتسو كان مستشرقاً) خلص إلى تصور لأكثر من 103 مفاهيم عقديّة في القرآن تكاد تطابق ما عليه جمهور المسلمين ، حتى ليبدو أن كاتب هذه الدراسة هو واحد من المسلمين ، وعلينا أن نؤكد على أنّ ذلك يرجع إلى أنّ ايزوتسو ياباني وليس مسيحياً أوروبياً أو أمريكياً ، فهو

لذلك لا يحمل عقدة نفسه تجاه المسلمين ، وبالتالي استطاع في دراسته أن يكون موضوعياً حيادياً ، ومن جهة ثانية درس ايزوتسو اللغة العربية لمدة عامين كاملين في البلاد العربية لهذه الغاية ، وحاول تفهم وجهة نظر المسلمين ؛ ما سمح له أن يقترب أكثر من الموضوعية .

إنّ الشيء الأكثر أهمية في دراسة ايزوتسو أنها تثبت أنّ الدراسة اللسانية للقرآن ليست دوماً ضد القرآن على النحو الذي سنشاهده في التطبيقات العربية للسانيات على القرآن ! لم يترجم هذا الكتاب إلى العربية شأنه شأن الكتب التي سبقته في هذا المجال وهي ما تزال اليوم على هذا الوضع نفسه ، ما يجعلنا نوّكد أنّ تطبيقات اللسانيات على القرآن المتأخرة التي جاءت بعد عشرين عاماً في العالم العربي كانت تجري دون اطلاع على ما يكتب في الغرب .

وتعتبر دراسة المفكر السوداني محمد أبو القاسم حاج حمد " العالمية الإسلامية الثانية عام 1979م " أول هذه التطبيقات ، حيث كانت تلك الفترة بداية لتسرب اللسانيات إلى كل حقول المعرفة الإنسانية ، ودخولها العالم العربي . ودشنت دراسة المهندس السوري محمد شحرور " الكتاب والقرآن " عام 1990م مرحلة مهمة لهذا النوع من الدراسات – بغض النظر عن تقييمنا لهذه الدراسة - حيث تحولت " القراءة المعاصرة " للقرآن منذ ذلك الوقت إلى ظاهرة واضحة ومتكررة . ولنا أن نسأل : إنه إذا كان من المفهوم لنا أن يطبق المستشرقون والباحثون الغربيون المناهج اللسانية الحديثة لكي يفهموا القرآن بدوافع معرفية وضعية وبدوافع " استعمارية " أو بدوافع معرفية " موضوعية " ، لأنهم يعتقدون أنّ هذه العلوم تكمن فيها القدرة السحرية لفهم الحقيقة على نحو لا يفهمها غيرهم فهي سقف المعرفة عندهم ، فما الذي يدفع الباحث العربي والمسلم للاعتماد على تلك المناهج رغم إشكالياتها وصبغتها الوضعية ، في ظل توفر بديل تراثي غاية في الأهمية ، أعني (أصول الفقه) ؟

إنّ الجواب بأنّ ذلك يندرج تحت التقليد العام للغرب فيه نصف الجواب ، خصوصاً ونحن نجد مسافة زمنية تفصل بين بداية التجربة العربية والتجربة الغربية تزيد عن عشرين عاماً...!

الجواب الكامل نجده في الباحث الأيديولوجي (العقيدة) الذي يسوغ هذه الدراسات ، والذي غالباً ما يكون ماركسياً أو علمانياً ، ويمثل القاسم المشترك بين كل الدراسات التي طبقت البحث اللساني على القرآن الكريم .

لقد كانت المناهج التراثية في التفسير تحول دوماً دون إقامة تأويل مذهبي علماني يستغرق كامل النص ، ما جعل التأويلات المذهبية من النوع العلماني التي مورست عليه تبدو نشازاً في النسق القرآني ، بحيث قلما تحرر هذه المذهبية دون تعسف في التأويل ، وتحميل النص ما لا يحتمل . وهذا ما عزز الطريقة التجزيئية المعروفة ، ما جعل أصحاب هذه الاتجاهات العلمانية يجهدون للبحث عن مناهج تسهل لهم تجبير القرآن لاعتقاداتهم ، وقد وجدوا في الدراسات اللسانية إمكانات كبيرة تسمح لهم بالقيام بتوليف لكامل النص القرآني بشكل منظم ومتكامل . ولكن ذلك لم يتم أيضاً إلا بنوع من التعسف والتجاوز لإشكاليات عديدة ، لكنه في كل الأحوال ليس مفوضاً بسهولة .

ومن هنا بدت بعض التطبيقات وكأنها قد حولت القرآن الكريم إلى ما يشبه " حواش ماركسية " كما نشهده في كتاب شحور .

وهكذا اكتسبت اللسانيات سمعة سيئة جداً في الأوساط العلمية الإسلامية³⁰؛ إذ اقترنت مع التوجهات العلمانية والتوليفات الأيديولوجية لدلالات القرآن الكريم . وهنا تبدو المفارقة ، فبينما كان الاستشراق ينحو نحو الموضوعية والحيادية باستخدامه للبحث اللساني كان الدارسون العرب يستخدمونه لتأكيد صحة اعتقاداتهم العلمانية لا لغاية البحث العلمي !
وعلينا أن نؤكد هنا، أنّ سوء استعمال البعض لهذا العلم لا يعني أنّ هذا العلم برمته سيء ، لا يمكننا الاستفادة منه ، فالمسلمون يعتقدون – على خلاف المسيحية – أنّ العلم والقرآن كلاهما من الله تعالى ، وبالتالي فهما لا يتصادمان ، وسوء الاستخدام وحده هو الذي يجب استنكاره .

ظاهرة القراءة المعاصرة بين انتقائية المنهج واختلاط الأيدولوجيات :

ذكرنا أنّ المناهج التراثية في القراءة كانت تحول دوماً دون إقامة تأويل إيديولوجي ، يستغرق كامل النص القرآني ، ولكن مع القراءة المعاصرة التي استبدلت المناهج تشهد للمرة الأولى تأويلاً إيديولوجياً لكامل القرآن ، فيه كثير من التماسك ومسحة المنطقية ! بحيث أمكن إقامة "توليفة " للنص أتاحت فرصة للبعض لكي يحول نصوص القرآن وكأنها " حواش ماركسية " ! ينفي من خلالها الله ذاته !... إن قراءة شحور المعروفة نموذج صارخ لذلك ؛ حيث إنّ هذه القراءة حاولت مخاتلة النص القرآني وخداعه أحياناً من موقف مضاد له ، أو معاد له ، لاستنطاقه بإيديولوجياتها !
ويوصول القراءة إلى هذا التطور والمقدرة ، استبدت المخاوف في أوساط الدارسين الإسلاميين على ما آل إليه التأويل مع هذا العبث الفاضح بدلالات النص القرآني ، والخوف من كل تأويل " معاصر " خصوصاً عندما أصبحت تلك الممارسات الإيديولوجية والتأويلية مقرونة باسم القراءة المعاصرة ، لأنّ الواقع الثقافي العربي يرفض هذا النوع من القراءة ، ويرفض أن تنسحب مظلة الحدائث بمفاهيمها الغربية ، والمدارس أو المشاريع النقدية التي أفرزتها على النصوص الدينية بصفة محددة في محاولات لأنسنة الدين ، إذ إنّ تطبيق مقولات النبوية والتفكيك على نص قرآني بما يعنيه ذلك من القول باللائق واللعب الحر للغة بمفهوم دريدا وبانتقاء التفسير المفضل والموثوق أو التفسير النهائي ، وتعدد التفسيرات بصورة لا نهائية يوقعنا في محاذير ربما لا نقصدها³¹.

لقد تسبب ذلك في تزايد الشك بالغرب ؛ كونه مصدر تلك المناهج والأدوات وحتى الأيديولوجيات ! وفي تشكيك البعض في قيمة تلك الأدوات والمناهج الحديثة جملة وتفصيلاً فما هؤلاء جميعهم من السذاجة والبساطة بحيث تمرر عليهم تلك التوليفات الغارقة في وحل الأيديولوجيا ، ولكنهم وهم بعيدون عن تلك المناهج والأدوات "بحكم القطيعة الناشئة بينهم وبين الغرب " لم يكن من سبيل لمواجهة تلك القراءات سوى باتهامها وفضحها ومن الضروري هنا التمييز بين " القراءة

³⁰ انظر : أبو عاصي : محمد سالم ، مقالان في التأويل معالم في المنهج ورصد للانحراف ، دار البصائر ، القاهرة ، 2003م، ص 65 .
³¹ عبد العزيز حمودة : الخروج من التيه ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، العدد 298 ، ص 129 .

المعاصرة " كنظرية ، و " القراءة المعاصرة " كتطبيقات قائمة ومنجزة حتى الآن ، فثم مسافة تفصل بينهما ؛ بحيث يمكن النظر لتلك التطبيقات كمحاولات فيها الكثير من الخيبة فكرياً ، يقول عبد العزيز حمودة : " لقد عشنا قرناً طويلاً من التخلف الحضاري يجعل الحداثة ضرورة من ضرورات البقاء وليست ترفاً ، لكن السؤال الذي تثيره الدراسة الحالية – المرايا المحدبة – في إلحاح لست نادماً عليه ، هو : أي حداثة نعني ؟ حداثة الشك الشامل وغياب المركز المرجعي واللعب الحر للعلاقة ولا نهائية الدلالة ، ولا شيء ثابت ولا شيء مقدس³² .

وإذا كان لنا أن نذكر فضل تلك القراءات ، فإننا نذكر نجاحها في التنبيه إلى قيمة المناهج الحديثة ، وقدرتها العالية على ممارسة التأويل ، وإن كان ما تم ممارسته علمياً من تلك المناهج والأدوات حد ضئيل في الغالب ؛ لا يتجاوز بعض المبادئ الأولية فيها (كالبنية ، أو الدراسة التزامنية ، ...) وهي مبادئ اللسانيات البنوية ، أو بعض مقولات التأويلية الحديثة ، وبعض مقولات الأسلوبية .

وفي المقابل نذكر أن الطريقة (الأيديولوجية) التي وظفت لها تلك المناهج تحت مظلة المعاصرة و " التجديد " كانت سبباً في تصعيد التوجس من أي محاولة جديدة في التأويل أو المراجعة النقدية ، وهو أمر يضاف إلى المساوئ العديدة التي أفرزتها تلك القراءات .

غير أنّ بعض الباحثين لم يقفوا فيما وقع فيه غيرهم من اتهام للمناهج التي استخدمت في تطبيقات " القراءة المعاصرة " فقد كان وعيهم لطبيعة تلك المناهج ، والطريقة التي استغلّت فيها عميقاً ، مما دفعهم للإصرار على التعامل معها والاستفادة منها دون توجس .

الباحث وإشكالية المنهج :

لم تستقر ، ولن تستقر تتميز مناهج النقد الأدبي الحديثة وأدوات البحث الألسنية ونظرياتها بتنوع وتعدد واسعين ، وداخل المنهج هناك مدارس واتجاهات ... وعندما تمت محاولات " القراءة المعاصرة " للقرآن الكريم من خلال تلك المناهج لا بد وأنها اصطدمت بهذا التنوع والتعدد ، فكيف إذن مارست حضورها من خلال هذا الواقع ؟

ينقل عز الدين إسماعيل عن كريستوفر بلتر قوله : " لاشك أنّ موقف هؤلاء الكتاب كان صدى لما طرأ على العالم من اهتزاز في القيم ، وشك في الحقائق نتيجة لاختلاف نظام العالم وصراع المعتقدات حتى أصبح ما هو وهم وما هو حقيقة على قدم المساواة ، ومن هنا فقد هؤلاء الكتاب ثقفتهم في كل نظام أو فلسفة أو مبدأ أخلاقي أو عقيدة دينية أو ما هو وجودي فإذا هم كتبوا ولا بد لهم أن يكتبوا صارت كتاباتهم ضرباً من اللعب أداته اللغة لا يقيم وزناً لتقاليد سابقة أو لأعراف أدبية قارة – أو يلبي رغبات فطرية متواترة ، أو يستهدف تحقيق لذة لجمهور المتلقين " ³³ .

³² حمودة : عبدالعزيز : المرايا المقعرة ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، العدد 272 ، ص 115 .

³³ عز الدين إسماعيل : جدلية الإبداع والموقف النقدي ، مجلة فصول ، المجلد العاشر ، أغسطس 1991م ، ص 147 .

من الطبيعي والحال هذه أن تكون طريقة التعامل مع تلك المناهج "انتقائية" ، ولكن هذه الانتقائية قلما تقوم على معطى معرفي ، أي قلما يفرضها البحث المعرفي نفسه ، فقد قام "معيار" هذه الانتقائية طبقاً للأيدولوجيا التي يحملها القارئ ! فمعضلة الأيدولوجيا تفرض نفسها دوماً في القراءة المعاصرة ، فهي مبدأ وغاية في الوقت نفسه ، هي خلفية مستترة وهدف واضح ، فقد اختارت منهجها تبعاً لقدرتها على " تبريرها" واستنطاق النص بها . وهكذا عندما مورست " القراءة المعاصرة " كان الهدف هو البحث عن شرعية أيديولوجيتها ، وأفكار مسبقة مرافقة لها ، ولم يكن الهم هو البحث عن موقف تأويلي أكثر قرباً من الصواب قط ! .

إذا تجاوزنا قضية الانتقائية تلك ، فسوقفنا ما أشرنا إليه قبل قليل من الإشكالية الحقيقية لتلك المناهج التي تتمثل في استخدام مناهج وأدوات بحث أنشئت وصيغت لدراسة وبحث النص البشري الإنساني – بمعنى أنها مفعمة بالوضعية – لدراسة نص " إلهي " المصدر ، مفارق للوضعية البشرية ؟

إن أية قراءة تتجاوز هذه الإشكالية دون حلول ، ستقوم – بشكل أو بآخر – بأنسنة الله (سبحانه) ! وإن تحييد تلك المناهج والأدوات عن جرعها "الوضعية" أمر في غاية الصعوبة ؛ ولكنه ممكن. ولا يمكن بحال الاستفادة من تلك المناهج دون ملاحظة هذه الإشكالية ووعيها . فالشرط الأساسي للقراءة بتلك الأدوات والمناهج لتحقيق مشروعيتها هو مراعاة خصائص النص القرآني ، أي تطويع تلك المناهج والأدوات لخصائصه كنص ديني إلهي المصدر .

من هنا نأخذ " القراءة " المعاصرة مشروعيتها ، حيث حركة (الفهم / التأويل / القراءة) تستند إلى نسيج معرفي يحاول التكيف بين استرداد المنهج ، وخصوصية الثقافة من جهة ، وبين حداثة القراءة وقداصة المقروء من جهة ثانية ، كما تحاول هذه الحركة التأويلية على مستوى آخر أن تقيم جسراً بين وعي المطلق ووعي التاريخ .

إنه من العسير إثبات وقف " الاجتهاد " في إنشاء مناهج البحث وأدوات استكشاف وتحليل المعني في النص القرآني وغيره ، وبالتالي فإن من لوازم ذلك وجود إمكانية قيام مناهج جديدة وهكذا يمكن القول إن القراءة المعاصرة تمتلك نظرية لها مشروعيتها ، تلك النظرية التي تعتمد على مبدأ الاستفادة من "منجزات" الدراسات اللسانية الحديثة ومناهج النقد الأدبي المعاصر ، باعتبارها نتاج العصر الراهن أي الوليد الشرعي لهذا التاريخ المعاصر – بغض النظر عن مدى سلامة هذا الوليد وصحته – وإن كان السؤال لا زال يلح عن مدى سبق وتجاوز تلك المناهج والأدوات لمثيلاتها التراثية ؟ !

يبقى أن نذكر أن أحد عيوب القراءة المعاصرة هو تجاهلها " للترعة الوضعية " التي ألح عليها أصحاب تلك المناهج أنفسهم ، تلك الترعة التي تناقض بشكل صارخ خصائص النص القرآني ، وتصطدم مع البعد الأهم وهو المصدرية الإلهية بكل ما يعني ذلك من تحرر واستقلال عن ثقافة تاريخية ما . وإمكانية إطلاق أحكام النص واعتبارها فوق التاريخية.

والعيب الثاني الذي تسقط فيه أكثر تلك القراءة المعاصرة ، تعاملها مع تلك المناهج والأدوات وكأنها كلها حقائق ثابتة وليست – كما هو الحال – نظريات كونها لا تحتل القطع .

الخاتمة:

إنّ الحقيقة التي ينبغي أن لا نغفل عنها أن استفادنا لإمكانات النص القرآني دلاليّاً غير ممكن ، بحيث إننا حين نظن ذلك نكون قد استفدنا أدواتنا ، واستهلكنا مناهجنا ذاتها وليس النص ! . ذلك لأنّ النص القرآني نزل ليكون " عالمياً" خاتماً، فلا بد أن لا يتوقف عن إنتاج الدلالة في كل زمان ومكان .

وهنا يجب التفريق بين النص القرآني بوصفه نصاً مفتوحاً وبين القراءة التفسيرية ، فإذا كان التفسير يقوم على مسافة لغوية بين خطابين : الخطاب القرآني ، و خطاب التفسير نفسه ، فإنه لمن المحال أن يتم اختصار هذه المسافة إلى درجة يمكن فيها للتطابق أن يأخذ سبيله إليها ، لأن خطاب التفسير ناتجاً ثقافياً لا محالة ، قائماً على النسبي والممكن ، وحاصلاً في الأفهام على مقدار اختلافها وتفاوتها ، فهو رهن بشروطنا التاريخية والزمنية ، وبظروف ذاتية وإنسانية بحتة . وإذا كان التفسير كخطاب منتج ثقافي تاريخي ، فأدواته بالضرورة منتج مثله (ثقافي وتاريخي) ... أي أنه ممكن التجاوز ، فتلك الأدوات والمناهج ليست " فوق تاريخية " .. إنها نسبية كنسبتيتنا نحن منتجي الخطاب ذاته ، والنص القرآني ليس كذلك فهو بوصفه " نصاً إلهياً " لا بد أن ينتج دلالاته باستمرار ، فهو " لا يخلق من كثرة الترداد " وبوصفه نصاً لرسالة خاتمة (أبدية) لا بد أن يكون معاصراً باستمرار ، بحيث يصبح على الدوام " مجاوزاً للتاريخ ، وأمام الظروف الإنسانية لا خلفها " وإن البحث عن " تجديد " لمنهج دراسة النص القرآني ، ليست لعدم كفاية الخطاب التفسيري فحسب ، بل لفتح آفاق معناه ، وتفجير إمكاناته ، فالنص القرآني يتجاوز دوماً المنهج بقدر ما يفتح للمنهج آفاقاً لقراءته .

أرجو من الله أن يتيح لنا مستقبلاً مزيداً من الدراسات التي تساهم في فتح آفاق الفهم للمعنى القرآني ، وتفجير إمكاناته ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

المراجع

- 1- بيرجيرو : الأسلوب والأسلوبية ، ت منذر العياشي ، ط5، مركز الإنماء القومي بيروت ، د. ت. ط.
- 2- الجرجاني : عبد القاهر - دلائل الإعجاز ، ت ياسين الأيوبي ، المكتبة العصرية ، صيدا - 2000م
- 3- الجطلاوي ، الهادي : مدخل إلى الأسلوبية ، ط1، مكتبة عيون ، الدار البيضاء ، 1992م .
- 4- الحاج: عبدالرحمن ، ظاهرة القراءة المعاصرة وأيديولوجيا الحداثة، مجلة التسامح، وزارة الأوقاف، مسقط - العدد 1- 2003م .
- 5- حمودة ، عبد القادر : الخروج من التيه ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت .
- 6 - حمودة ، عبد العزيز : المرايا المقعرة ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت ، أغسطس ، 2001م
- 7- درويش : أحمد ، الأسلوب والأسلوبية ، مجلة فصول ، المجلد الخامس ، العدد الأول ، أكتوبر 1994م
- 8- الذهبي : حسين ، التفسير والمفسرون ، ط19، القاهرة ، د. ت. ط .
- 9- الزمر ، أحمد قاسم : ظواهر أسلوبية في الشعر الحديث في اليمن ، ط1، مركز عبادي للدراسات والنشر ، صنعاء ، 1996م .
- 10- السعيداني: خالد، إشكالية القراءة في الفكر العربي المعاصر، رسالة دكتوراة، جامعة الزيتونة، تونس ، 1998 م .
- 11- سعيد بجيري : علم لغة النص ، ط1، الشركة المصرية العامة للنشر ، القاهرة ، 1997م
- 12- الشافعي ، محمد بن أدريس : الرسالة ، ت أحمد محمد شاكر ، المكتبة العلمية ، القاهرة
- 13- شكري : محمد عباد : مدخل إلى علم الأسلوب ، ط1، دار العلوم ، الرياض ، 1982م
- 14- صلاح فضل : علم الأسلوب " مبادئه وإجراءاته " ط2، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، 1985م
- 15- الطرابلسي ، محمد هادي : تحاليل أسلوبية ، ط2 ، دار الجنوب للنشر ، تونس ، 1989م
- 16- عائشة بنت الشاطي : القرآن والتفسير العصري ، دائرة المعارف ، القاهرة ، 1970م
- 17 - عز الدين إسماعيل : جدلية الإبداع والموقف النقدي ، مجلة فصول ، المجلد العاشر ، أغسطس 1991م .
- 18- العلواني: طه جابر - أفلا يتديرون القرآن - ط1 - دار السلام - القاهرة - 2010م .
- 19- عمارة ، محمد : الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 1972م .
- 20- فيهفايغر : مدخل إلى علم اللغة النصي ، ت فالخ العجم ، منشورات جامعة الملك سعود ، الرياض ، 1996م
- 21- مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط ، ط3، القاهرة ، د. ت. ط
- 22- محمد سالم أبو عاصي : مقالتان في التأويل معالم في المنهج ورصد للانحراف ، دار البصائر ، القاهرة ، 2003م

- 23- المسدي : عبد السلام ، الأسلوبية والأسلوب ، ط3 ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، 1982م
- 24- مصلوح ، سعد : الأسلوب دراسة لغوية إحصائية ، ط3، عالم الكتب القاهرة ، 1992م
- 25- ابن منظور : لسان العرب ، دون معلومات .
- 26- مولينيه ، جورج : الأسلوبية ، ترجمة بسام بركة ، ط1، مؤسسة الجامعية للنشر ، بيروت 1999م